الفصل السابع

نظرية سانتيانا في الماهيات

الفصل السابع

نظرية سانتيانا فى الماهيات

إن الماهيـة Essence هـى اللفـظ الـذى اسـتخدمه سـانتيانا للتعبـير عن التصـورات والمعـانى، حيث اعتمـد فى ذلك على نظرية أرسـطوطاليس فى الماهيـة أو الجوهر، ولكنه أزال منها كل الأوصاف الأرسـطية لكى يقدمها بهـذه التأثـيرات، فالماهية تعـنى المفهوم الـكلى وكذلك موضـوع الفكر، ولكنهـا لا تشـكل أى قوة مادية أو معنى مـادى، حيث إن إدراك هذه الماهيـة ينتج عن تفاعل العقل مع كل من المادة والبيئة. ولذلك تبقى المادة أصل الوجود وما يتوسط الفعل والحدث، أما عالم الماهية فهو يشمل كل تفكير ممكن[1]. وذلك لكون المعرفة والاعتقاد ليسوا نتيجة رئيسية للتفكير، ولكنهما عبارة عن اعتقادات للماهية لا يمكن الهروب منها. وأيضا يكون ذلك لكون الماهية ضرورية للحدث، حيث إن علم المصطلحات الإبستمولوجية هاماً وضرورياً للمعرفة، وكذلك يكون الاتجاه نحو إدراك الاعتقاد يكمن فى الإيمان الحيوانى الذى يتم فرضه من خلال الظروف الطبيعية[2].

وفي مذهب المطلق المتعالى يقول سانتيانا عن الماهية «لو أن نقادى حين أنكروا الماهيات، قد أدركوا بعقولهم فى وضوح ماذا ينكرون، لسلموا قبل ما قلت. إن الماهية هى أى شيء محدد، قادر على أن يظهر أو يكون موضوعاً للفكر، ووجود شيء له هذه الماهية مسـألة خارجية، لا علاقة لها بالمنطق ولا بعلم الجمال. لهذا فإن سوء الفهم يزيد أضعافاً مضاعفة إذا قلت إنى أؤمن بالماهيات الأبدية. لأن القارئ (وربما الكاتب أيضاً) معرض لأن يفهم من الماهيات التى يدوم

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

(2) Ibid:, at. http://plato.stanford.edu/entries/santayana (02/06/2008).

بقاؤهـا، وفى هذا قذف بنظريتى إلى السـماء الأفلاطونية، حيث قـوى الخيال والآلهة والنجوم التى تتحكم فى مقادير الناس والأمم، وهكذا حشدت فى زمرة أصحاب الخرافات البالية، بينما أنا عدو لخرافات الزمن الحاضر ذاتها»[1].

وقد ظن هنرى توماس (أحد تلامذه سانتيانا فى هارفارد) أن سانتيانا قد أطلق اسماً جديداً للتعبـير عـن مثل أفلاطون، فأطلق عليها اسـم الماهيـات، فالماهيات عند سـانتيانا « كما يقول هنرى توماس - شـأنها شـأن المثل عند أفلاطون، ما هى إلا الصور الأصلية، أو النماذج الأزلية لكل الكائنات[2]. وكذلك ظن «جوزايا رويس» (أحد أساتذة سانيتانا فى هارفارد) أن سانتيانا قـد فصل بين الماهيـة والوجود، وهذا ما لا يرتضيه فيلسـوفنا - حيث يقـول «إنى لا أفصل بين الاثنين بل أميز بينهما، فمن البديهى أن الشىء لا يمكن أن يكون له وجود ما لم يكن له طابع، وإنما توجد الأشياء التى لها طابع إلى حد ما، ومع ذلك فالوجود يتضمن التغيير أو خط التغيير: فالأشياء قد يصيبها التحول أو بعبارة أخرى قد تسقط عنها إحدى الماهيات وتحل محلها أخرى. وعندئـذ يبدو أن الماهيات المفقودة قد انفصلت فعلاً عن الوجود، كما تنفصل أوراق الشـجر الميتة عن أغصانها»[3].

ولذلك لا يجب علينا أن ننظر إلى الماهيات عند سـانتيانا على أنها تكّون بناء هرمياً تتوقف درجاتـه بعضهـا عـلى البعض وليس يسـودها « لوغـوس»، يسرى فيهـا جميعاً كـما فى الصور الأفلاطونية وما شاكلها، ذلك أنه لا يوجد « عقل سرمدى» لا فى السماء ولا فى الأرض[4].

ولذلك يرى ريتشارد بتلر (أحد الباحثين فى فلسفة سانيتانا) - أن فكرة الماهية Notion of Essence عند سـانتيانا - يصدق عليها التعريف التالى: أن الماهية هى جوهر أى وجود، سـواء كان وجـوداً ممكنـاً أو وجوداً فعلياً، أنطولوجياً أو منطقيا، ماديـاً أو مثالياً، تصوريا أو واقعياً، بسيطاً أم معقداً[5].

(1) جورج سانيتانا: مذهب المطلق المتعالى، مرجع سابق، ص92.
(2) هنرى توماس: أعلام الفلاسفة، مرجع سابق، ص388.
(3) جورج سانتيانا: مذهب المطلق المتعالى، مرجع سابق، ص91.
(4) عبد الرحمن بدوى: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، ص581.
(5) Richard Butler: the Mind of Santayana, op. cit, p. 87.

وبالتالى تقوم فكرة الماهية عند سانتيانا - بدور هام، حيث يمكنها أن تخلص الفيلسوف من المشكلات المرهقة فى البحث الفلسفى، حتى و إن كانت هذه المشكلات إلى درجة كبيرة مدرسية أو اصطناعية. مثل المشكلة المتعلقة بالإحساسات والأفكار وكذلك الجزيئات particulars والكليات universals والمجرد Abstractوالمشخص أو العينى concrete، فليس هناك اختلاف فى الماهيات المعطاة، فالماهيات متساوية، ولكل منها صفتها وخاصيتها التي تساعد على أن تكون ماهيات متكاملة تكاملاً مثالياً[1].

وعلى الرغم من أن عالم الماهيات هو عالم كامل فى وجوده الفعلى اللامتناهى، وعلى الرغم من كونه فى وجوده ذاك غير متأثر بتطور الأشياء، إلا أنه متصل اتصالاً وثيقاً بسبب أزليته نفسها، بهذه التغيرات الدائمةً[2]. وكما يقوم مبدأ الماهية عند سانتيانا - على فكرة الهوية Identity أو الذاتية - حيث يتحدد وجود الماهية تحديداً كاملاً على أساس تعريفها، ولا نقصد بالتعريف هنا استخدام كلمات بعينها أو مصطلحات بذاتها، ولكننا نقصد بالتعريف، التعريف باستخدام الخاصية التى تميز الماهية عن أى ماهية أخرى. فكل ماهية هى ماهية فردية Individual تماماً، لذلك لا يوجد هناك سؤال فى عالم الماهية يتعلق بالتطبيق الخاطئ للهوية أو يتعلق بالغموض Vagueness أو التغير والتحول Shiftiness أو التناقض الذاتى self - contradiction[3]. كما تتصف الماهية بأنها كلية universal[4]. وبذلك يوصف عالم الماهية بأنه المعيار العام للمقاييس والاستمرارية[5].

والماهية كما يقول سانتيانا بسبب كونها فكراً صرفاً، وبسبب عدم وجودها وجودا فعلياً، وبسبب أزليتها، تكون موصولة بالوجود المادى من الداخل، لا بوصفها امتداداً لما هو موجود أو جزء منه، و يبدو أن هذا أمرًا غاية فى البساطة والوضوح، بحيث لا أكاد أعرف ماذا أقول لمن يجدونه قولاً غير مفهوم[6].

(1) G. Santayana: Scepticism and Animal faith, op. cit.p.90.

(2) جورج سانتيانا: مذهب المطلق المتعالى، مرجع سابق، ص ص90،91.

(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, P. 18.

(4) Ibid: P. 18.

(5) Ibid: P. 19.

(6)جورج سانتيانا: مذهب المطلق المتعالى، مرجع سابق، ص91.

ويوضح سانتيانا فكرة الوجود الضمني بقوله» إن ثمة سمة من الأسطورة الأفلاطونية تعلق بفكـرة الماهيات حتى يقال عنها إنها موجودة وجـوداً ضمنياً لا وجوداً فعلياً، والوجود الضمني معنـاه الديمومـة الكامنة والبقاء المطـرد في الزمن، لكن الأزلية وهي من السـمات الذاتية لكل الماهيات، غير محدودة بزمن. لهذا فإن نفس الماهية قد تتكرر مرات كثيرة وحينما يحدث ذلك، أو حينما تتمثل لنا ماهية على نحو ما يفترض لقوانين الطبيعة أو الأخلاق في عالمنا، فلنا أن نقول إن هـذه الماهيـات موجودة ضمناً لكننا لا نقول بذلك على أسـاس أبديتها التي يحدثها زمن، بل على أسـاس ثبات مزعوم في الأشـياء يحفظ للماهيات وظيفتها في الوقت الحاضر، فقواعد لعبة الشـطرنج مثلاً باقية ما بقي لاعبو الشطرنج على التزامها. فإذا هجرت لعبة الشطرنج وانصرف النـاس عنهـا، فإن قواعدها تصبح مجـرد «قواعد ممكنة» أو «ماهيـات» وكل ما يبقى منها هو «صـدق» القـول بأنها كانت في يوم من الأيام قواعد مقررة يلتـزم بها اللاعبون، ويمكن القول ببقاء الصدق الفعلي، لأنه حتى حين تحتجب الوقائع الخاصة به في الماضي أو في المسـتقبل، فإن هـذه الوقائع تضفي على الماهيات التي تتمثل فيها اتصالاً أبدياً بالوجود، لأنه حتى بفرض تغير الوجود تغيراً جذرياً سريعاً، فإنه لا يستطيع أن ينفي ماضيه أو مستقبله[1].

ويؤكد سانتيانا قوله السابق فيقول:» إن الوجود الضمني شيء يتعلق بالمادة، وبنواحي المادة سواء منها الفلكية والإنسانية والاجتماعية، ولا يصدق على الماهية. وإذا وصفت أي ماهية بأنها موجودة ضمناً ومنحتها سلطة دائمة على الأحداث، كنت من أسرى المذاهب الفكرية»[2].

ومما سـبق يكون هناك عالمين في فلسـفة سـانتيانا عـالم الماهيات وعـالم للوقائع الفعلية، الأول فيه أفكار عما يمكن حدوثه، والثاني فيه ما قد حدث فعلاً[3].

إن الماهيـات عبارة عن صور نقية وصافيـة أو نوعيات، وأن مثل تلك الماهيات تفصل بين الاندماج والهجوم والقوة التغييرية للوجود. فالماهيات تتواجد بشـكل مباشر في الإدراك وهي فقط الباقية والمسـتمرة في الوجود، والماهيات هي الأشـياء الوحيدة التي يمكن اكتشـافها بين

(1) المرجع السابق: ص ص 92، 93.
(2) المرجع السابق: ص 93.
(3) د/ زكي نجيب محمود: نافذة على فلسفة العصر، كتاب العربي، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي، الكويت، العدد السابع والعشرون، 15 أبريل 1990، ص 100.

صيرورة الأشياء الزمنية. إنها فقط عبارة عن صورة أو ماهية الأشياء وليست عبارة عن جواهر الأشياء المادية التى يمكن بالفعل أن تدخل إلى عقولنا أو تأتى إلى خبراتنا فى لحظات التخيل التى نعيشها أو حتى فى أحلامنا[1].

أن الماهيات عبارة فقط عن الصور أو ماهيات الأشياء التى نمتلكها، ولكن عندما كان الوجود ناء ومتغير و يبعد عن إدراكنا ونظرتنا له، فإن الماهيات وصور الأشياء يتم الكشف عنها فى عقولنا وذواتنا المفكرة. وقد تكون الماهيات حسية مثل اللون الأزرق، أو تكون ماهيات مجردة مثل العدد عشرة، أو تكون شعورية مثل وصف المانخوليا، أو ربما تمتلك أى درجة من التعقيد مثل الفكرة السرمدية «اللانهائية». فالماهية عبارة النظام الكونى أو الصورة العامة التى دائما لا تقبل التغيير، على الرغم من أن أى وجود فى أجزاءه وخصائصه دائما يكون فى موضوعه قابلية للتغيير[2].

ويمكن إيجاز موقف سانتيانا عن الماهية في عدة نقاط:

1- أن جميع الماهيات فردية ومكتفية بذاتها[3]. أى أنها تقوم بنفسها وتستمد وجودها من داخلها.

2- ليس لعالم الماهية قواعد أو تضمينات، كما أنها لا تحتوى على استثناءات معينة أو منطق معين[4].

3- المنطق هو الممر الذى تمر عليه اللغة المألوفة فى ميدان الماهيات للموضوعات التى لها صلة بها [5].

4- ليس هناك ماهية عامة، فالعمومية هى وظائف المصطلحات أو الحدود فى العلاقات الخارجية[6].

(1) Guy W. Stroh: American philosophy from Edwards to Deweys, op.cit, p.202.
(2) Ibid: pp.202.203.
(3) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, P. 78.
(4) Ibid: P. 81.
(5) Ibid: P. 90.
(6) Ibid: P. 91.

5- تقـوم الماهيات بإحـداث التغيرات والتعـددات الممكنة لكى تصبح صـيرورة الوجود صيرورة تامة.

6- تعمل الماهيات الخاصة بالحدس كرموز للموضوعات الذاتية والموضوعات المعرفية.

7- للماهيات قيمة أخلاقية أو جمالية باعتبارها موضوعات الفكر[1].

8- يوصف عالم الماهية بأنه عالم الممكنات، وذلك لكونه يمثل فكرة عقلية من الممكن أن تحدث غيرها فى عالم الممكنات المتعددة.

(1) Richard Butler: the mind of Santyana.op.cit, p. 173.